﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يقل له: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا؛ لكنه فى جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال: واذكروا إذ أنتم قليل، فما السبب؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾

(سورة الغاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان فى حياة المؤمنين؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم. لذلك جاء هنا بالظرف فقط.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى: ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾.

والمكر هو التَّبْييت بشىء خفىّ يضرّ بالخَصْم. والذى يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه، لا يملك قدرة على المواجهة، فيبيت من ورائه، ولو كانت عنده

قدرة على المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ومادام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربى يقول :

وضعيفة فإذا أصابَتْ فرصةً

قَتَلتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاء

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية ؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوى فهو يثق فى نفسه وقدراته ولذلك يعطى خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

أى يذكرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم فى مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت فى حفظه ورعايته .

إذن فلست وحدك لأنك تأوى إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله ؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليثبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه ؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حدّاً لهذه المسألة ، فاجتمعوا فى دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابى فوجدهم يتشاورون ؛ وقالوا نثبته ، والتثبيت ضد الحركة ، وقوله : «ليثبتوك» أى ليقيدوا حركتك فى الدعوة ؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم . ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت فى نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى فى الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .

والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة ، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأى غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابى بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من

قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو فى فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه فى القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهى هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقول الحق : « آياتنا » يعنى آيات القرآن ؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التى تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإما أن تكون الآيات بمعنى المعجزات :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الأعراف)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التى هى قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقولوا ؛ لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتنى لأكرمتك ، فامتنع الإكرام منى لامتناع المجىء منك ، فهذا يعنى امتناع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندى مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر - إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا ؛ لذلك كان كلامهم مجرد « تهويش » وتهديد لا محل له . فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك .

إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدرون أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً فى الإعجاز .

لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدى حفز المُتَحدَّى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدى . فإن لم تتجمع لهم المواهب التى تكفل قبول التحدى انسحبوا ؛ لكن واحداً منهم اسمه « النضر بن الحارث » ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له هدف ولا يحمل منهجاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد فى قوله أى معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ
أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا ؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلا لكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذى قيل هو معان قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضـرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بنى اذهب إلى عمك فلان وقل له : إن أبى يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عنده ضيوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوى من مكانته. وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام ؟ طبعاً لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات. أو قد يكون الأب أمياً ، والابن مثقفا ناضجا فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة.

إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والأساطير جمع أسطورة ، أى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

و « إذ » تأتى للظرف أيضاً ، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : « إذ قالوا ». وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم.

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ، أكانوا يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، أو فاجعلنا نقبله ؟ . ومادامو قد قالوا : « اللهم » فالمنادى هو الله .

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

إذن هم يعلمون أن لله عز وجل عندية ، وفيها حق ، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله ، وأنَّ عند الإله حقًا . فكيف إن جاء إنسان وقال لكم : إنني رسول من عند الله ، وهذا هو المنهج ، وهو منهج ومعجزة في وقت واحد ، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له ؟ . لكن ماداموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب ، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد ، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة - وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله . وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً ، ويتمثل هذا في قول الحق تبارك وتعالى في آية أخرى :

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾

(سورة الزخرف)

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر ؛ لآمنوا به . وفي هذا اعتراف بأن القرآن معجزة ، ومنهج . وقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ورد على لسان

أبي جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن مالك : قال أبو جهل بن هشام : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فنزلت : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »(١)

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا :

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾

(من الآية ٩٢ سورة الإسراء)

وهذا دليل على التخبط فى الكلام ، وفقدان الوعى العقلى.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدواً ، فيه إيلام - لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسل ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمره نوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة ؛ لينجو من الطوفان. وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول أولا ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحا فضل اللجوء إلى الله بالاستغفار :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المنقذ الذى يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفى ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضّهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب. ويرسم لهم وسيلة النجاة.

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وتسمى اللام فى « ليعذبهم » بـ « لام الجحود » ، نجحد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتى أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيمانىّ الذى قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضنّ الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يُوَضِّح لنا : هب مسيئنا لمحسننا ، أى أن يدارى المحسن على المسىء. ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية صُدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد تسبب فى أنهم يعقدون معه معاهدة هى صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟. والقائل لذلك هو عمر

ابن الخطاب - رضى الله عنه - ، وفى التـفـاوض ، جـاء على بن أبى طالب ليكتب المعاهدة وفى بدئها « هذا ما صالح عليه رسول الله » فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قـائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حـاربناك ، بل اكتب : « هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله » ، فامتنع علىّ عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها إلا رسول الله . فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهى الموقف ، وليعطى معجزة ، فينظر لعلى وهو مغتبط به ، فيقول له :

« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » ويتحقق ذلك بعد حياة النبى ، وخـلافة أبى بكر ، وخـلافة عمر ، وخلافة عثمان، ثم تجىء الخلافة لعلى وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد »[1]

أى سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاوية وجنوده ، وبين على وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معـاهدة فيمـا بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال على - كرم الله وجهه - : هذا ما تعاهد وتعاقد عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فـقال المفـاوض عن معاوية : لو كنت أميرا للمؤمنين أكنّا نحاربك ؟ ، فتذكّر على كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : « اكتب فإن لك مثلها ..... إلخ » .

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضى ألا تتجمد كمن يكون فى قالب حديدى ، بل تفترض السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهى المواقف الصعبة ؛ لأن كل طرف لو أصرّ على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة ليتفرغ المسلمون - بعد الأمن من قريش - للدعوة إلى منهج الله فى الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التى تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ، ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح .

إذن فولىّ الأمر عليه أن يملك البصيرة التى لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود فيه وفى قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قالوا : لا ، علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل وعاتبين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت لكم هذا العام ؟.

ولم يتنبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفُرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا.

ونرى موقف أم سلمة رضى الله عنها وهى الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة ، لقد قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، لقد جاءوا وفى نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق ، ثم حُرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به ، ولا تقل لهم شيئاً ، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فَعَلوا.

وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدى ، وفعل المسلمون مثله . ونجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول عن الحديبية : هى الفتح فى الإسلام . وما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله. والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها.

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم لا علم الله. وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب

فى أنه لم يجعل من الحديبية أرض قتال أو التحام ؛ فقال :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

(سورة الفتح)

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يختفون بين الكفار ، فلم يكن فى مكة قبل الفتح - حىّ للمسلمين الذين يخفون إيمانهم ، وحىّ للكفار ، بل كان الناس يسكنون معاً ، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية ، لقتل المسلم أخاه المسلم الذى لم يعلن إسلامه ، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار ، لعذب الله الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً.

وهنا فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

ويعنى بذلك أن بعضهم هو الذى يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل ، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية ؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا نتساءل : أى شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعذيبهم هو عدالة ؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه التعذيب. لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام ؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه ، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة. واستولى أبرهة الأشرم على مائه من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لى مائة بعير فأرجو أن تردها إلىّ. فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم، ثم لا تكلمنى فيه وتكلمنى فى مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام ربّاً يحميه .

وجاءت طير أبابيل ترمى أبرهة بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً يعلمون أنّ للبيت ربّاً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلاّ للمتقين، ولم تكن قريش من المتقين .

و حيثيات التعذيب إذن هى صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه.
لماذا؟

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنفال)

وإذا كان أكثرهم لا يعلم، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام، فقداسة هذا البيت التى تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد جعلهم الله عز وجل فى هذا المكان ليقيموا الصلاة ؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد فى الأرض ولو بواحد فى هذا المكان، ولتظل عبادته دائمة. ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهى بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها، وسبحانه يحقق ما يريد ، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة .

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه فى أوقات الصلاة، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين، و العصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين ، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله ، وهناك فى كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما فى ميقاتها ، ولا تخلو بقعة فى الأرض من قول : « الله أكبر »، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة.

لكن قريشاً حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

حيث كانت صلاتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصدية، والمكاء هو الصفير الذى يصفرونه، والتصدية هى التصفيق، وكانت صلواتهم هى صفير يسبب صدى للآذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين، فكيف تكون الصلاة هكذا ؟ . وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذى يلى أمر البيت الحرام لابد أن يكون متقياً لله، لكن هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتى يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ويبين المولى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغرى الكافر بأن يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل ، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة ، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلّ ما يجىء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أموالهم ؛ وقد نصر الله دينه ؟.

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء. وحين يأتى القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسينفقونها » أى أن الإنفاق سيكون فى المستقبل ، والاستقبال له مرحلتان ؛ استقبال قريب ، واستقبال بعيد. فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسينفقونها » ، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهرا من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضا ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذى صار من بعد ذلك خبراً يروى دليل افتقادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجىء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التى تحدث للكفار من عذاب عظيم فى جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا فى جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التى تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هى أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التى تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هى تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث فى الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس فى ليلة ؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبى بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوى إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله فى النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد فى النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم ؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث فى المجال الرياضى ، فحملة الأثقال - على سبيل المثال - يدخلون فى مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذى يكون مؤهلا لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس فى الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون ؛ خطراً ، ادعوا الشجاعة و الكرم والشهامة ، وادَّعوا الإيمان القوى المستعد لأى تضحية فى سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهى الاختبار الحقيقى لما فى القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالى لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذى يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوى العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث فى ناحية ، وذلك خبيث فى ناحية أخرى ، وثالث خبيث فى ناحية ثالثة ، وغيرهم فى ناحية رابعة ، وخامسة إلى ماشاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه فى النار جميعاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ ﴾

و" قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومادام قد وجد أمر ، فلابد من وجود المبلغ للأمر ، أى أن هناك مخاطباً ومخاطَباً ، والمخاطب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ لأن الله تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

أى إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التى ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً فى أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذى يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم ؛ لأن الخطاب لابد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك « لام التوجيه » ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وكان سياق الكلام يقتضى القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب ؟